مقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الأداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي. جميع الحقوق محفوظة. 20 يونيو 2020.

# زوايا النظر في علم التواصل

الدكتور نورالدين رايص

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس

#### تمهيد

تعددت مشارب التواصل وكثر الحديث عنها، وكلُّ يحسب أنه يحسن صُنعا لكنه لا يُعالج دراسة التواصل الا من زاوية نظر محددة وبعد معرفي معين؛ فيُخطئ ويُصيب، وأحيانا يخلط بين ما هو موجود هنا وما هو موجود هناك، ويُرجح كفة على أخرى.

لكن الحقيقة أن علم التواصل استمد غناه من علوم أخرى، ومن الواضح أن الإنسان منخرط منذ ولادته إلى حين مماته في الإجراء المعقد لاكتساب قواعد التواصل، لكنه من الراجح ألا يعتني -إلا قليلا- بما يؤسس بنية هذه القواعد أو لنقل عملية التواصل الإنساني جملة وتفصيلا كما ذكر أصحاب "منطق التواصل". 1

إن دراسة التواصل وتداوله -كما يقول هؤلاء-تكتسي طابع الموسوعية، إذ -ولا شك-تتوزع مداخلَه أمورٌ عديدة، ومن ثم تجد تعريفات كثيرة، وليس تعريفا واحدا، ومن جملتها ما ورد في:

#### 1-فلسفة اللغة

لقد أكد فلاسفة اللغة أن وظيفة اللغة هي التواصل كما أن وظيفة القلب أن يضخ الدم مثل ما ذكر سورل في نقاشه مع تشومسكي $^2$ ، ومن دون شك أن العديد من أقطاب التداولية اعتمدوا هذا الطرح، ومن جملة الباحثين في نقاشه مع تشومسكي $^2$ ا البلاغ عبد الرحمن الذي طلع علينا بمصطلح "البلاغ" كترجمة ل في فلسفة اللغة المغاربة الدكتور طه عبد الرحمن الذي طلع علينا بمصطلح "البلاغ" كترجمة ل Communication كما أنه سمى عناصر التواصل بمصطلحات لم يستعملها أحد سواه وذلك في " نموذج البلاغ" – أي التواصل –وهي أربعة "الناقل والمنقول والمنقول إليه وأداة النقل" وهي في اصطلاحات أخرى المرسل والرسالة والمستقبل والقناة.

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup> - P.Watzlawick, et al, 1979, Une logique de la communication, trad. Janine Morche, ed. Seuil, p. 7.

<sup>&</sup>lt;sup>2</sup> - Noam Chomsky, 1977, *Réflexions sur le langage* p.71

<sup>3 -</sup> طه عبد الرحمن، 1987، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ص: 32.

مقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الأداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي. جميع الحقوق محفوظة. 20 يونيو 2020.

#### 2–اللسانيات

إن عددا V يستهان به من المقدمات اللسانية تفتح حديثها اليوم على الموضوع التالي: "تصلح اللغة لأجل التواصل". ولقد قال لينز في معرض حديثه عن التواصل أنه من البداهة أن نقول إن اللغة وسيلة للتواصل، فمن الصعب جدا أن نتخيل تعريفا كافيا شافيا لمصطلح لغة دون الرجوع بشكل أو بآخر إلى مفهوم التواصل V.

لذلك نجد-كما قال جاكبسون-أن الأنساق الأخرى لا تشكل سوى توابع ومشتقات للنسق اللغوي. والأداة الأساسية في التواصل الحاملة للأخبار هي اللغة، كما أكد أندري مارتيني بقوله: "إن الخاصية الأساسية للغة هي أن تصير "أداة للتواصل". ولقد تبعه في هذا برنار بوتيي Bernard Pottier الذي اعتبر أن دراسة التواصل هي النواة لكل الميكانزمات اللسانية والملاحظ أن تشومسكي في حديثه عن اللغة قد ميزها عن التواصل، فهو يقول في بداية حديثه عن التحليل الصوري للغات الطبيعية: "إن اللغة والتواصل يؤديان دورا خاصا وأساسيا في حياة البشرية"2.

## -3

إن تشكلات السلوك عند السيميولوجيين والناقل لها هو التواصل على أن دراسته "تشبه في حد ذاتها السيميوطيقا\_ أي دراسة أنظمة العلامات"<sup>3</sup>.

وكتب بيير غيرو: "تكمن وظيفة العلامة في تأمينها الاتصال بين الأفكار عبر وسيلة الرسائل مما يحتم بالتالي وجود أداة، شيء يتكلم عنه ومرجع، وعلامات ونظام إشارات، كما يتوجب أن يكون ثمة وسيلة نقل تصل بين المرسل والمستقبل". 4

فإذن من اليقين أن نقول إن أنظمة تواصل الكائنات ما دون الإنسان أنظمة تنتمي إلى التواصل الفطري الذي يعتمد الصرخات المحدودة والسلوكيات الجسدية المتنوعة والومضات الضوئية<sup>5</sup>.

والتواصل القصدي هو ما ابتكره الإنسان ولا زال يبتكره من أنظمة تؤسس هذا التواصل وتطوره وهي الأنظمة الخاضعة لحواسه التي هي منافذ عقله فبدون هذه الحواس يكون دماغ الإنسان كعلبة سوداء أو كمتاهة نبحث لها

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup>- J. Lyons, 1979, Eléments de sémantique, p 33.

<sup>&</sup>lt;sup>2</sup> - Noam Chomsky, G.A. Miller, 1968, L'Analyse formelle des langues naturelles, p 1.

<sup>&</sup>lt;sup>3</sup> - P.Watzlawick et autres : *Une Logique de la communication*, p 16.

<sup>4 -</sup> بيير غيرو والسيمياء ترجمة أنطوان أبو زيد، 1984، ص.9.

<sup>5-</sup> لدى قنديل البحر وبعض الحشرات.

عن حدود. لقد استطاع الإنسان أن يوظف تبعا لذلك جهازا آخر يصلح لوظائف أخرى وهو الجهاز التنفسي الذي يعزف عليه أنغام كلماته وينشئ ويعيد الكثير من رسالاته الكلامية. إن الفرق بين التواصل الفطري والتواصل القصدي يتجلى في كون التواصل القصدي في تطور مستمر أما الآخر فإن إمكانياته محدودة ولدراسة تواصل الحيوانات بتفصيل يمكننا العودة إلى دراسة أنظمة العلامات وبالضبط إلى سيميولوجيا الحيوانات Zoosémiotique.

وهناك نوع آخر ينتمي أيضا لدراسة التواصل: إنه دراسة تواصل الخلايا الحية أو ما يعرف "بالبيونيكا Bionique" ولا شك أن المتأمل في جسد الإنسان أو الحيوان سيرى أن هذه العملية قائمة في جسده حيث تسافر العديد من الرسائل – مثلا–من جهاز الإبصار عبر شبكة العين والعصب بصري إلى مركز الإبصار بالدماغ. وهكذا دواليك مع سائر الحواس لأنها منافذ العقل. وقد تحدث العلاقة العكسية انطلاقا من الدماغ. ثم هناك مثال آخر عن تواصل الإنسان مع الآلات، وهو ما يعرف بالدراسة السبرنتيكية Cybernétique بحيث يقوم الإنسان حاليا ببذل أدنى جهد ليحصل على أكبر منفعة من جراء فعل بسيط صادر عنه، كأن يضغط على أزرار، ويتجلى ذلك في أصغر آلة إلكترونية وهي الحاسبة أو جهاز الهاتف الحمول، أو غيرهما من الآلات التي يعج بها عالمنا اليوم فيحدث بذلك أوامر يتم الاستجابة لها فورا، ومن جملة ذلك أيضا أن ترى مهندسا يحرك ويسير معملا بكامله من خلال غرفة فيها كمبيوتر فقط.

## 4- علم الاجتماع

صرح ميشل فوكو Michel Faucault: "أن البحث في الظواهر الاجتماعية يتمركز أكثر فأكثر على عملية التواصل". إن حاجة الإنسان إلى التواصل هي إلى حد ما حاجة فطرية، إننا نحب أن نرى ما يحدث عند الآخرين Jean Gazaneuve لكي ننسى أنفسنا ولكي نجد أنفسنا وسط زحام هذا المعمور. ويشرحه " جون كازانوف Communiquer " حيث يقول: " تعني Communiquer في الاشتقاق الفرنسي تحويل ما هو فردي إلى ما هو جماعي" وهذا هو الشرط الوحيد للحياة، وفي سنة 1909 ومن خلال كتاب "النظام الاجتماعي" Ch.cooley قعد عالم الاجتماع الأمريكي ورائد علم النفس الاجتماعي شارل كولي: Organisation التواصل على هذا النحو: "إنه الميكانزم الذي تتواجد وترتبط من خلاله العلاقات الإنسانية إنه يضم تعبير الوجه

<sup>2</sup>- نفسه.

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup> - Deniss Huisman, 1983, *Le Dire et le faire*, ed. C.D.U et Sedes, p.12.

مقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي. جميع الحقوق محفوظة. 20 يونيو

والمواقف والحركات وتنغيم الصوت والكلمات والكتابات والمطبوعات...والرادار والتلغراف والتليفون... وكل ما يبحث فيه من خلال الزمان والمكان إلى ما لا نهاية $^{11}$ .

وقد حلل " جون لوهيس J.Lohisse هذه القاعدة قائلا: "إنما القاعدة التي وجدناها – لحد الآن- أكثر كمالا وأكثر أهمية بحيث أننا نجد فيها عناصر عديدة.

بادئ ذي بدء: نجد أن فكرة التواصل هي الأساس الوجودي للعلاقة الإنسانية؛ فالتواصل يحمل العلاقة الإنسانية من المثالية إلى الواقعية ومن اللازمني إلى التاريخي المحدود. إذن بدون تواصل ستكون العلاقة الإنسانية أشبه بصورة نبحث لها عن حدود. وبعد ذلك نجد فكرة النسق التي تصبح بواسطتها العلاقة بين البشر فعلا من الأفعال، وفي هذا الميكانزم يصير الترميز أخيرا من مثل الكلمات المنقوشات، الصور...الخ، وسائل نقل للمعلومات موضوع العلاقة"<sup>2</sup>.

# 5- الأنثر بولوجيا

لاحظ "كلود لفي شتراوس" في كتابه "الأنطربلوجيا البنيوية" أن التواصل يمكن أن يشمل أيضا تبادل النساء بين الجماعات، وكذا الحاجيات والخدمات أو تبادل الكلام. إن التواصل يردنا إلى جنس التبادل الذي يشكل التواصل منه صنفا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الصنف يشكل الشرط الوحيد لوجود أصناف التبادل الأخرى. فبتواصلنا نتبادل رسائل أو معلومات". وبتبادلنا لحاجيات ذات طبيعة متنوعة نتواصل. إن فهم التواصل يتمركز على جدلية التبادل<sup>3</sup>.

# 6- علم النفس اللسايي

قال جون دوبوا عن التواصل إنه " بينشخصي intersubjective ، وأما تعريفه من وجهة علم النفس اللساني Psycholinguistique فهو كالآتي:" عملية التواصل هي ربط المتكلم الدلالة بالأصوات ويتم عكس ذلك بالنسبة للمستمع بحيث يربط هذه الأصوات المنطوقة بدلالاتما"4.

### 7 - السياسة

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup> - Roger Mucchielli, 1976, Communication et réseaux de communications, ed. E. S. F. p. 32. 2 ـ نفسه ِ

<sup>&</sup>lt;sup>3</sup>-Huisman, Le Dire et le faire, p.15.

<sup>&</sup>lt;sup>4</sup> - J.Dubois, 1973, *Dictionnaire de linguistique : Communication*, ed. Larousse.

مقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي. جميع الحقوق محفوظة. 20 يونيو 2020.

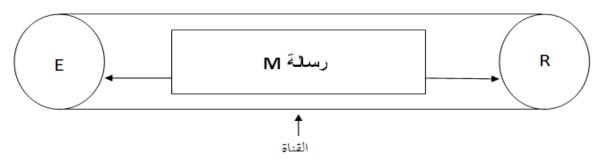
وبُعيد المنهج التقني في التواصل –وعلى غرار ذلك– أتى نموذج دومينيك فولطون القائل باقتران عمليات التواصل – دائما– بطبيعة الصراعات القائمة سواء أكانت سياسية أم دينية أم اجتماعية أم ثقافية وهلم جرا.  $^{1}$ 

أما الألماني يورغن هابرماس فقد ربط الأخلاق بالتواصل وأكد ذلك في كتابه: "نظرية الفاعلية التواصلية" ثم في كتاب " "إتيقا المناقشة"، مما أدى به إلى إبراز معالم نظرية التأويل.

أما نموذج لاسويل السياسي وهو التصميم الشهير المعروف بالتصميم الميكانيكي المبني على أسئلته الخمسة المتداولة وهي:

من يتكلم؟ عم يتكلم؟ إلى من يتكلم؟ بأي وسيلة؟ ما هي النتائج؟

يزعم لاسويل أن الظاهرة التواصلية تقطع إلى أجزاء منسقة، وكل نسق تواصل ينتسب إلى تحويل رسالة مادية – أو صارت مادية – بين المرسل E و المستقبل E و ذلك ما يتجلى في التصميم التالى:



ورسم لاسويل عند حصول التواصل دوائر تحدد نجاح فعل التواصل وفشله بحسب قدرات المرسل والمستقبل  $^{2}$ .

### 8- الإعلام:

لاينفك الإعلاميون من نسبة علم التواصل إليهم فهو يعني عندهم كل شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية التي توجد فيها مشاركة واعية للأفراد والجماعات في نشر الخبر وتوزيع المعلومات، ويمكننا التمييز فيها بين:

- -قنوات التواصل.
- -شبكات التواصل التي تخضع لبنية الأفراد أو الجماعات التي تربطها علاقة ما.
  - -أنماط التواصل التي تخضع للتفاعل بين بنية الشبكات والبنية الاجتماعية<sup>3</sup>.

ولقد فرضت قضية بعد المسافات المكانية على الإنسان أن يبحث عن أنجع السبل لإيصال معلوماته إلى الآخر "ذاك الآخر الذي هو في أمس الحاجة لما يعرفه غيره"4.

-

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup> -Dominique Wolton, 1997, *Penser la communication*, ed. Flammarion, p. 357 2 - انظر نظرية التواصل و اللسانيات الحديثة ص: 51.

<sup>&</sup>lt;sup>3</sup> - Dictionnaire des média, p. 46.

<sup>&</sup>lt;sup>4</sup> - R. Escarpit, *Théorie générale de l'information et de communication*, p. 7.

مقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الأداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي. جميع الحقوق محفوظة. 20 يونيو 2020.

# 9- هندسة التواصل السلكي واللاسلكي:

انتشر تصميم شانون وويفر فيما تلاه من أبحاث مكتسبا تغيرات بحسب المجال الذي طبق فيه، ومن جملة ذلك ما ورد في نموذج إسكاربي R.Escarpit المعروف بالنموذج الميكانيكي.

وهكذا -كما ذكر جاكبسون في مؤتمر جمع اللسانيين سنة 1956- قال: "أتى زمن المهندسين"، فاستعار الناس منهم نظريتهم واصطلاحاتهم وصاغوها بحسب ما يناسبهم ويحلو لهم. توالت النماذج معلقة ومنتقدة لنموذجه، كما انتقد نموذج شانون وويفر بما طرحه " ولبور شرام Wilbur Schramm "من نموذج بديل. ونموذج كاتز ولازارسفيلد Katz-Lazarsefeld المنتقد إعلاميا لما ورد عندهما أيضا. وكذلك نموذج نيوكمب الاجتماعي الأمريكي الذي ركز فيه على حاجة الناس عموما إلى الانسجام في المعتقدات والمشاعر والسلوك، وذلك في كتابه Acquaintance of الناساء وهكذا توالت النماذج معززة بعضها بعضا منتقدة أو معدلة أو مضيفة ما ينقص النماذج الأخرى إما في نفس الحقل المعرفي أو خارجه ولعل استعراض هذه النماذج بتفصيل والاطلاع عليها في مصادرها ومراجعها يبين الشيء الكثير فيما اتفقت فيه واختلفت.

## 10- التعريف التاريخي:

هو جواب عن سؤال: هل التواصل حادث أم أنه قديم قدم التاريخ؟

إننا نجد أن عملية التواصل لم تنشأ اليوم فقط بل كانت حاضرة منذ الزمن الغابر وتوالت تباعا إلى يومنا الحالي، ومثال ذلك أن الكائنات الحية كلها تقوم بحذه العملية بصفة فطرية منذ أقدم العهود، و توالت رسائلها محمولة من مجموعة إلى أخرى، و من جيل إلى جيل، ومن فئة إلى أخرى في تواصل عبر الزمن، وكذلك الشأن في التواصل القصدي بحيث نرى أن الإنسان استفاد من تجارب الأمم الماضية من جراء كسبه المعرفي بالطريقة المباشرة أو بالطريقة غير المباشرة، وتتجلى الأولى في احتكاكه بالغير، و أما الثانية بأخذه من رسائله المكتوبة أو الرمزية المعلومات التي عليها حضارته اليوم. وظهرت أهمية التواصل كعامل مهم في استمرار الحياة وازدهارها على وجه الأرض منذ زمن بعيد، ولعبت وسائل الاتصال دورا كبيرا في نمو الفكر الإنساني وتقدم الحضارة الإنسانية واتخذها كثير من العلماء والباحثين معيارا عند المقارنة بين الحضارات والشعوب المختلفة بحيث يقاس مدى رقيها بما أحرزته من تقدم في هذا الجال.

مقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الأداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي. جميع الحقوق محفوظة. 20 يونيو 2020.

### الدكتور نور الدين رايص

- يشغل منصب أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس.
- حاصل على دكتوراه الدولة في اللسانيات من شعبة اللغة العربية وآدابها وعلى دبلوم دراسات العليا من نفس الكلية.



- يدرس اللسانيات والتواصل والسيمائيات، وعضو مجلس الكلية مرتين وعضو مجلس الجامعة مرة واحدة.
  - وله العديد من الإصدارات الأكاديمية القيمة في مجال تخصصه العلمي.